



آفاق النهضة العربية برؤية مغربية

-الجابري أمودجا-

(ب)سعاد طيباوي / جامعة قاصدي مرباح/ورقلة(الجزائر)
drsouad3@gmail.com

1-ملخص الدراسة باللغة العربية:

تتمحور هذه الدراسة حول الجهود الفكرية العربية في محاولة بعث نهضة عربية إسلامية، خاصة المغربية منها نظرا لدورها الإيجابي في تنوير الفكر العربي، و النهوض بمشروعه النهضةوي. و قد كان ذلك جليا في فكر محمد عابد الجابري، لذا أخذناه كنموذج عن الفكر المغربي نظرا لما ميز فلسفته عن باقي فلسفات المفكرين المغاربة، وهذا ضمن أعماله التي من أبرزها سلسلة "نقد العقل العربي" التي خصها من أجل خلق روح جديدة في الفلسفة العربية، والإجابة عن الإشكاليات التي لا زالت عالقة في الساحة الفكرية العربية، لعل أبرزها إشكالية الأصالة والمعاصرة. معيدا بذلك الاعتبار للانا العربي ضمن رؤية تجديدية للثقافة العربية الإسلامية تتجاوز كلا القراءات التقليدية للتراث، و هذا بدراسته دراسة عقلية نقدية إبستمولوجية، تخترق اللامعقول فيه وتزيح كل الأصنام التي كانت عائقا أمام النهضة، مخرجا بذلك العقل العربي من النظرة اللاتاريخية إلى النظرة التاريخية ؛ أي تاريخية العقل التي تجعله يتطور داخل التاريخ وليس خارجه.

2-ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية:

This study focuses on the Arab intellectual efforts in an attempt to revive an Arab Islamic revival, especially the Maghreb, because of its positive role in enlightening Arab thought and promoting its Renaissance project. This was evident in the thought of Mohammed Abed Al-Jabri, so we took it as a model of Maghreb thought because of the distinguished philosophy of the rest of the philosophies of Moroccan thinkers. This is among his works, most notably the series "Criticism of the Arab mind," which he devoted to create a new spirit in Arab philosophy, And to answer the problems that are still stuck in the Arab intellectual arena, perhaps the most prominent problematic ego Arab Lane originality and contemporary. Thus reflecting the consideration of the within a renewed vision of the Arab-Islamic culture that transcends both the traditional readings of the heritage. This was studied by an epistemological critique, which



penetrates the unthinkable and displaces all the idols that were an obstacle to the Renaissance, thus removing the Arab mind from the historical perspective to the historical view The mind that makes it evolve within history and not outside.

3- كلمات مفتاحية: العقل العربي؛ التراث؛ الحداثة؛ النهضة العربية؛ الاستمولوجية؛ تاريخية العقل

يُعد محمد عابد الجابري⁽¹⁾ (1936-2010م) من أهم الشخصيات العربية المغاربية التي حاولت إخراج الأنا العربي الإسلامي من غياهب الاغتراب الحضاري، الذي وجدت نفسها قابعة فيه في ظل ما فرضه الزمن الغربي لا العربي من معطيات حضارية جديدة. إذ أن الإنسان العربي أصبح يُعيش واقعين مختلفين كل الاختلاف؛ تاريخياً، إيديولوجياً دينياً، ثقافياً، في ذات الآن. بحيث أن الفارق الزمني الحضاري جلي بينهما؛ واقع في رأس الهرم، والآخر في قاعدته. فالإنسان الغربي متقدم قرون حضارية عن الإنسان العربي الذي أصبح يحمل هوية ازدواجية على طريفي نقيض خلقت لديه حالة اغتراب ذاتي و واقعي، عن كل ما يحدد انتماءاته، وهويته، و شخصيته كذات عربية لها وجوها و كينونتها. ذات لها استقلالها التاريخي.

هذه التناقضات التي أصبحت تشكل ملامح الشخصية العربية في شكل طمس هوياتي لا يجد تحديدا له، خلق عدة إشكاليات أبرزها إشكالية التراث و الحداثة، أو الأصالة و المعاصرة. هل نأخذ بالتراث و نتغاضى عن الحداثة؟ أم نأخذ بالحداثة، و نتغاضى عن التراث؟ أم نأخذ بالاثنتين معا؟ هذه المشكلات الناتجة عن الـ «نحن» و الأخر؛ أي النموذجين العربي الإسلامي، و النموذج الأوربي، جعلت " الجابري" يتساءل عن السبل التي تمكن الذات العربية الإسلامية من تحقيق استقلالها التاريخي؟ و ما الذي أفقدها استقلالها، و تاريخها؟ في محاولة منه إعطاء دفعة للمسار التنويري العربي، الذي لا لم يحقق نخصته بعد، ولن يحققها ما دام لم يجد الآلية التي تمكنه من مجاوزة المفاهيم، و الطرق التقليدية في معالجة القضايا العربية المعاصرة. فالجابري من خلال مشروعه النهضوي حاول خلق فلسفة عربية قادرة على معالجة قضايا، و مشكلات الإنسان العربي الإسلامي المعاصر، بمعنى التأسيس لفكر عربي إسلامي بروح العصر. لأنه رغم المحاولات العديدة من طرف المصلحين و المفكرين العرب، إلا أنها لم تؤت ثمارها بعد على المستوى الحضاري العالمي، بل حتى على المستوى العربي فقط لذا يجب البحث في السبل التي تخرج العقل العربي من الرجعية التي يعيشها التي بقيت الذهنية العربية حبيسة لها.

(1) : محمد عابد الجابري (1936-2010م) : مفكر عربي مغربي ذا نزعة قومية، من مواليد منطقة " فجيح " الواقعة بالشرق المغربي، حيث نشأ وترعرع في أسرة مفككة ما جعله يتربى في أحضان أحواله، لكن هذا لم يحرمه من العناية الحسنة من طرف أهله. في سنة (1996م) نشر الجابري اعترافاته على صفحات جرائد مغربية، و خليجية، و جعلت بعد ذلك في كتاب "حفريات الذاكرة من بعيد " الذي صدر عام (1998م) في بيروت، وما يشد الانتباه في هذه الاعترافات للجابري هو قدرته في استرجاع صور ما قبل الفطام وعلاقته بأمه. قوة الخيال لديه جعلت عنوان المؤلف يحمل بعدا نفسيا حتى لا ينصدم القارئ بها، والتي لا تقوى على استرجاع وجه خاله، وفي الوقت عينه تؤرخ لتاريخ وفاته-خاله- بمحادثة اغتيال سقف المسجد الكبير بقصر " زناكة " (1939-1940م). فكل الوقائع التي تحدث عنها الجابري كخبرات انفعالية هي تجارب اجتماعية تعكس تقاليد القرى المغربية التي يصعب اختراقها بقيم التحول الزمني والصيرورة التاريخية. (محمد عابد الجابري، حفريات في الذاكرة من بعيد، ص41. نقلا عن: صايم عبد الحكيم، هواجس فلسفية في التراث و الفكر المعاصر، كنوز الحكمة، الجزائر، 2010، ص 145).



- أولا: إمكانات صناعة النهضة العربية:

في كتابه (الخطاب العربي المعاصر) حاول الجابري القيام بمسح عام للخطاب العربي بإعادة ترتيب موضوعاته، و المفاهيم التي يقوم عليها واضع المشروع النهضوي العربي أمام استنطاق مفاهيمي و تاريخي في محاولة منه الوقوف على أسباب انبعثت هذه النهضة والآليات التي قامت عليها، وعلاقتها بالواقع العربي المعاصر، وهل آتت أكملها، باعتبارها طريق وسبيل للخروج من حالة الضعف والانحطاط التي يعيشها الإنسان العربي بفعل الحداثة وما انجر عنها؟ فالجابري أراد أن يدرس ويبحث في إمكانية قيام نهضة عربية، وكيف السبيل إلى تحقيق ذلك؟ لم الإنسان العربي لم يصنع نهضته بعد؟ أين ممكن الخلل والعوائق التي تحيل دون الوصول إلى اكتمال مشروع النهضة العربية؟

إن المشروع النهضوي العربي مشرع لازالت لم ترسم، و تتحدد معالمه بعد. منذ أن عرف بواده الأولى على أيدي الجيل السابق الذي حمل على عاتقه مسؤولية اليقظة العربية، فمعه كانت إرهابات الفكر العربي. فهو مشروع لم يكمل بعد بل حتى على المستوى الذهني. لهذا لم يثبت على تحديد مفاهيمي معين، فأخذ مفهوم « ثورة »، كما أخذ أيضا مفهوم « نهضة »، هذا الاختلاف المفاهيمي مرده حسب الجابري ليس لغويا فحسب بل أن اللاحق، و اللامعاشة الواقعية لهذا المشروع الذي لم يخرج بعد من حيز الإمكان إلى حيز الفعل، هي التي خلقت المزاوجة في المفهوم بين الثورة، و النهضة، رغم أن المفهومين دخلا حديثا للقاموس العربي نتيجة الترجمة إلا أن المزاوجة اللغوية ليست بغريبة على الفكر العربي فمن الجانب اللغوي المزاوجة مقبولة من حيث علاقة الدال بالمدلول. وهي لا تمثل إشكالية بقدر ما تكمن الإشكالية في نظر الجابري في « فقر مضمونها لدى المفكر العربي... »⁽¹⁾ فاستعمال ثورة أو نهضة يكون حسب الحاجة الزمنية فشعار الثورة سقط مع هزيمة (1967م)، و تحمل شعار النهضة الذي مثلته الاتجاهات الفكرية العربية المعاصرة على اختلاف مواقفها وجبهاتها، الإصلاحية، و الليبرالية و العلمانية. ولا تزال جارية إلى الآن دون أن تحقق الوصل مع سابقتها، أو تستقل بذاتها. وقد بدأت بحركة الإحياء الحضاري، و التحرر من الاستعمار، وبعث ما تحقق في المرحلة السابقة، مع محاولة التمكن مما حصل في العالم بعدها إلى حدود النهضة العربية الإسلامية لكنها لا تزال لم تجدي نفعا وتعطي المطلوب منها في ظل تحديات العصر.⁽²⁾

هاته الثورة أو النهضة وجد المفكر العربي نفسه فيها منذ أوائل القرن الماضي أمام بناءين حضاريين: حضارة عربية إسلامية هي بمثابة السند القار الذي تتسلح به الأنا العربي لمواجهة صدمة الحداثة. فوظف التراث توظيفاً مزدوجاً: توظيفاً يمثل النهضة نفسها، وتوظيفاً دفاعياً تحضوياً « فما تزال تحديات الغرب العسكرية، و الصناعية، و العلمية، و المؤسساتية للأمة العربية، و مقومات وجودها مما جعل تلك الدعوة للتراث، و الأصول تتخذ صورة ميكانيزم للدفاع عن الذات. »⁽³⁾ و الحضارة الأوروبية بكل ما تحمله من ايدولوجيا، و مركزية، و هيمنة

(1) : محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة 5، ص 21.

(2) : أبو يعرب المرزوقي و الطيب تيزيني، آفاق فلسفة عربية معاصرة، دار الفكر ، دمشق، الطبعة الأولى، ص 13.

(3) : محمد عابد الجابري، التراث و الحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1991، ص 25.



عسكرية، و ثقافية، هاته الحضارة كما قال عنها الجابري هي التي أيقظت روح النهضة في العرب ف « الحضارة الأوربية التي كان تحديها لهم - ثقافيا و عسكريا- المهماز الذي أيقظهم، و طرح مشكلة « النهضة » عليهم...»⁽¹⁾

لكن أن تجد نفسك في مشكلة و تفرض عليك هاته المشكلة ليس مثلما تخلقها أنت وتحاول معاشتها وإيجاد الحلول لها. هذا حال المفكر العربي لم يبادر بالنهضة إلا بعدما فرضتها عليه تيارات الحداثة، فوجد نفسه مفرغ المضامين، لأنه لم ينطلق من واقعه إلا بعد اقتحام واقع آخر له فأصبح يعيش واقين، لذا أصبحت لديه المفاهيم غامضة لأنها غريبة عن الواقع. فمصطلحي « الثورة » و « النهضة » واضحين كل الوضوح لدى الغرب لأنهما يجيدان تحقيقا لهما على أرض الواقع. « فالمصطلحان في اللغات الأوربية هما من أسماء الأعلام، وإذا أطلقا ليدلا على معنى « النهضة » أو « الثورة » بدون تخصيص فإن هذا المعنى يظل مع ذلك مشبعا، غنيا نظرا لارتباطه بنموذج واقعي معروف تمام المعرفة.»⁽²⁾ فلا يمكن إذن للإنسان العربي صناعه نهضته إلا من خلال ربط المفاهيم بمضامينها.

- ثانيا : الذات العربية و الاستقلال التاريخي

يرى الجابري أن تحقق النهضة العربية مرهون بمجملته من الشروط أهمها: تمتع الذات العربية بالتححرر، والاستقلالية في ظل غياب الآخر - الغرب - الذي يكون التعامل معه تعاملنا نقديا يسمح بالتعرف على أسس تفوقه، و العمل على مسايرتها مع ما يتماشى، و التراث العربي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عدم التقيد بالقديم، و وجوب التححرر منه تحررا بناءا يسمح بامتلاكه، و تحقيقه، و تجاوزه في نفس الوقت، ولا يتحقق إلا من خلال إعادة بنائه من جديد، بإعادة ترتيب العلاقات التي تحكم أجزائه. فالمعرفة إذن تكون معرفة نقدية تمكن من استحضار الحاضر و المستقبل الذي يعطي للعقل العربي موقعه الذي يجب أن يتموقع فيه في ظل الرهانات المعاصرة، فلا يجب أن يتغلغل في المعاصرة فتميع خصوصيته، و يفقد هويته، ولا يبقى رهينا لسلطة السلف فيصاب بالرجعية الحضارية، فلا بد أن تكون رؤيته نقدية إبستمية. وهاته الرؤية لن تجد إمكاناتها إلا إذا كان حضور الأنا العربي حضورا واعيا و وعي الذات بنفسها يتمثل في تاريخها، و فرديتها، وفي كل ما تحمله من تناقضات تتفرد بها دون غيرها. فنقد الآخر لا يتم، إلا بتحقيق الوعي الذاتي. فكيف لذات غير واعية بنفسها أن تعرف الآخر و تنتقد، إذا كانت عاجزة عن معرفة ذاتها؟.

يقول الجابري في كتابه الخطاب العربي المعاصر: « إن الافتقاد إلى الاستقلال التاريخي التام يجعل الوعي، وبالتالي الخطاب المعبر عنه محكوما بنموذج -سلف، أو مشدودا إلى البحث عنه. والعكس صحيح أيضا فهيمنة النموذج السلف ورسوخ آلية القياس في الفكر يجعلان الذات عاجزة عن تحقيق استقلالها التاريخي إزاء الآخر... مهما كان هذا الآخر من القوة، و الضعف. وإذن فالمهمة الأولى و الأساسية

(4) : محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص 22.

(2) : المتصدر نفسه، ص 22.



المطروحة على الساحة العربية الراهنة هي تحقيق الاستقلال التاريخي التام للذات العربية فيه، وبه وحده تتحرر من الانسياق وراء أي نموذج، وبه وحده تتحرر من آلية القياس التي تشدها دوماً إلى نموذج - سلف، إلى أصل.¹ فالمتبع إذن للخطاب الفلسفي العربي المعاصر سوف يجده مثقل بمنظومتين مرجعيتين: الإسلامية، و العربية ولا يمكن فهمه ولا استيعابه إلا في ظل هاتين المرجعيتين، فهما المتحكمتان في صياغته وتحديد شكله، و مضمونه، و منهجه، وبالتالي هذه التبعية إلى نموذج سابق هي التي تحول دون تحقيق استقلالية تاريخية و بالتالي تحقيق نهضة، وإبداع نصية عربية حاملة لفكر العرب، و ثقافتهم. فلا بد إذن من إحداث قطيعة إبستمولوجية مع كل نموذج يمكن أن يشكل عائقاً أمام الذات في إدراكها لوعيتها، وإثبات وجودها باستقلاليتها التاريخية، لأن النموذج - السلف يكبح جموح الأنا و يجعلها خاضعة لسلطته و بالتالي تكون موضع ضعف، ولن تحقق إمكاناتها التاريخية و الحضارية.

لا يمكن التأسيس لخطاب فلسفي عربي أصيل إذن، يعكس النهضة العربية في مختلف جوانبها، إلا بضمان الاستقلالية المنطقية، و التاريخية. لأنه لا يمكن الحديث عن عقل عربي لا يزال يعيش تبعية تحت سلطة سلفية أو مرجعية. سواء كانت عربية أو غربية. « فسيبيل تحقيق الاستقلال التاريخي للذات العربية هو التحرر من النموذجين معاً، بمعنى التحرر من سلطتهما السلفية، سلطتهما المرجعية.»² فأى خطاب محكوم بسلطة مهما كان نوعها من شأنه عرقلة مساره التنويري على حساب ما تفرضه هي فتأخذ طابعاً إلزامياً لا تريحنا يمارس قوة على المتلقي دون أن يولي اهتماماً لواقعه، وبالتالي يحكم عليه بتبعيه لا تعنى باهتماماته بل تقتلها، و تحله ذا رؤية صمنية خاضعة لنموذج يقتل مستقبلها المنشود ويوضح الجابري ذلك في قوله : « الخطاب العربي الخطاب المبشر بالنهضة والثورة والأصالة والمعاصرة خطاب توفيقى متناقض محكوم بسلف. وأن يكون الخطاب محكوم بسلف معناه أنه خطاب لا يرى الواقع كما هو لا يعبر عنه و لا يعترف به و بالتالي لا يرى المستقبل إلا من خلال التمثال الذي يقيمه في ذهنه للسلف الذي يستكين إليه بل يستسلم له إذن هو خطاب وعي مستلب.»³ هذا هو حال الذات العربية، ذات قابلية برائن تخلف فرض عليها لا شعورياً، ولا تجد سبيل العودة إلى وعيها واستقلالها التاريخي والحضاري الذي سلب منها لا إرادياً في ظل صراعات إيديولوجية حضارية ثقافية دينية كلها تصب في الصالح الغربي لا العربي. ونجد نصيف نصار يعتبر أيضاً الاستقلال التاريخي عاملاً أساسياً، و شرطاً مهماً للإبداع الفكري. فلا يمكن صناعة نهضة لأمة تعيش تبعية ثقافية فلا بد من التحرر و الاستقلالية التاريخية التي لا يمكن من دونها على حد رأي الجابري أن نتحدث عن مشروع نهضوي عربي مهما كانت صفته.

إذن بين تيار السلفية والليبرالية يركن الخطاب العربي، وكل تيار وكيف كان تواطؤه مع التراث، فالتيار السلفي اهتم أكثر من غيره بالتراث وكانت قراءته له قراءة لا تاريخية وبالتالي لا تأتي بجديد . «فالقراءة السلفية للتراث قراءة لا تاريخية، وبالتالي فهي لا يمكن أن تنتج

(1) : محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص 204.

(2) : المصدر نفسه، 105.

(3) : المصدر نفسه، ص 59.



سوى نوع واحد من الفهم للتراث: هو الفهم التراثي. التراث يحتويها و هي لا تحتويه. لأن التراث يكرر نفسه.⁽¹⁾ أما التيار الليبرالي فنهضة العرب حسبه مرهونة بتجاوز التراث و إتباع ما جاء به الغرب من مبادئ كالحرية والمساواة وغيرها فـ«ينظر الليبرالي العربي إلى التراث العربي الإسلامي من الحاضر الذي يحياه حاضر الغرب الأوربي، فيقرأه قراءة أورباوية النزعة؛ أي ينظر إليه من منظومة مرجعية أوربية لذلك فهو لا يرى فيه إلا ما يراه الأوربي.»⁽²⁾ لهذا يعد الجابري أن رؤيتهما للتراث رؤية قاصرة وعاجزة لا تخدم الأنا العربي ولا تؤسس لنهضته ولا تخلق أرضية خصبة للفكر تعيد للعقل العربي الفعالية بعد الاستقالة، لأنه أصبح عقلا مستقيلا لم يعد بإمكانه حل الإشكاليات التي يعيشها الإنسان العربي في ظل تحديا العصر. لذا وجب خلق سبل جديدة تعيد النظر في كيفية مساءلة التراث مسألة شاملة تخص العقل العربي بنقد إستيممي يضع التراث تحت نظر منهجي منطقي يبحث في الآليات التي يحتكم إليها. وقد سار على نفس النهج محمد أركون الذي حاول هو الآخر نقد العقل الإسلامي من خلال معالجة إشكالية الأصالة، و المعاصرة في مشروع نحوي يمهّد لإنشاء أرضية تراثية صلبة تتماشى و المعاصرة.

- ثالثا: من العقل المكوّن إلى العقل المكوّن

هنا لا بد من الوقوف عند مفهوم العقل العربي عند الجابري فهو يعتبره «جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية الإسلامية للمتممين إليها كأساس لاكتساب المعرفة وتفرضها عليهم كنظام معرفي أي كجملة من المفاهيم والإجراءات التي تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما بنيتها الشعورية.»⁽³⁾ فمن خلال هذا المفهوم يتضح أن رؤية الجابري منصبه نحو هذا النظام المعرفي، الذي يقترن بفترة تاريخية معينة مشكلا بذلك وعيها الخاص. هذا يدل على أن هذه البنية غير ثابتة تختلف من حقبة تاريخية إلى أخرى لذلك يتم تحليله ونقده والوقوف على كل ما هو لا عقلاني فيه وفقا لمعطيات هذه الحقبة. وقد وضع الجابري ثلاث أنظمة معرفية لا يخرج عنها العقل العربي في مختلف محطاته: البيان - العرفان - البرهان:

- «البيان كحقل معرفي هو عالم المعرفة الذي تبنيه العلوم الإسلامية الخالصة علوم اللغة وعلوم الدين، والبيان كنظام معرفي هو جملة المبادئ و المفاهيم التي و الإجراءات التي تعطي ذاك بنيتها اللاشعورية: أعني المحددات والسلطات التي تحكم وتوجه المتلقي للمعرفة المنتج لها داخل الحقل البياني والمعرفي دون أن يشعر بهذا أو يختارها.»⁽⁴⁾ و هنا البيان لغوي الأصل يعتمد على اللفظ وهذا النظام المعرفي كان يعتمد فقط على النقل في رؤيته للمسائل اللاعقلية.

(1) : محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة السادسة، ص 13.

(2) : المصدر نفسه، ص 13.

(3) : محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة 9، ص 555.

(4) : محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص 556.



- «العرفان كفعل معرفي هو ما يسميه أصحابه بالكشف أو العيان وكحقل معرفي هو عبارة عن خليط من هواجس وعقائد وأساطير تتلون بلون الدين الذي تقوم على هامشه لتقدم له ما يعتقده العرفانيون أنه الحقيقة الكامنة وراء ظاهر نصوصه.»⁽¹⁾ وهذا البناء رؤيته خاصة للعالم تعتمد على الجانب الروحاني.

- «البرهان كفعل معرفي هو استدلال استنتاجي وكحقل معرفي هو عالم المعرفة الفلسفية العلمية المنحدر إلى الثقافة العربية عبر الترجمة كتب أرسطو خاصة.»⁽²⁾ وهذا البناء جاء مع حركة الترجمة ودخول الفلسفة اليونانية للفكر الإسلامي ويؤسس نظرتهم للعالم على أساس منطقي يربط بين السبب والنتيجة، بين المقدم والنتيجة.

هذه البنية التي تشكل العقل العربي بنظر الجابري رأى من خلالها أن العقل العربي تحكمه عرفانية صوفية مشرقية ظلامية، وعقلانية مغربية، وكذا قطيعة معرفية بين المشرق والمغرب. وأيضا الفكر اليوناني عقلاني بينما الفكر العربي عرفاني بياني. الأمر الذي جعله بمجد ابن رشد، وابن باجه، وابن طفيل وابن تومرت. ويتحامل على الكندي، وابن سينا والفراي، وإخوان الصفا.⁽³⁾ لذا في ظل هذا الاختلاف فقدت الذات العربية معقوليتها وفتح المجال للمعقول فيها نتيجة سيطرة العقل العرفاني على العقلين البياني والبرهاني خدمة لإيديولوجية م، وتمذهب معين.

ولإعادة الاعتبار لمنطق العقل، أكد الجابري على ضرورة دراسة البنية المعرفية العربية دراسة نقدية عقلية في إطار رؤية تاريخية للعقل تجعله داخل الثقافة مرتبطا بها وليس خارجها مسائرا واقعها في شكل ديناميكي لاستاتيكي، يجعل منه في حركية لأنه مرتبطا بثقافة معينة وبالتالي لا يمكن له أن يكون ثابتا مطلقا. هذا التصور الذي قدمه الجابري عن العقل في مقارنة بين العقل اليوناني والعقل الأوربي الحديث والعقل العربي جعله يخلص إلى تاريخية العقل وتطوره حيث يقول: «إن هذا العرض الذي قدمنا فيه بصورة مجملة تطور مفهوم العقل في الثقافة اليونانية والثقافة الأوربية الحديثة، يؤكد تاريخية هذا العقل، أي ارتباطه بالثقافة التي يتحرك داخلها، الشيء الذي ينزع عنه الصبغة الإطلاعية... والعقل كلي فقط داخل الثقافة التي أنتجته، وليس هذا فحسب فإن تطور مفهوم العقل في الثقافة الإغريقية - الأوربية يعكس تطور هذا العقل نفسه وتحدد نظرتهم إلى ذاته.»⁽⁴⁾ لذا فكلية العقل وثباته تكون فقط حسب الجابري داخل النوع الثقافي الواحد، رغم كونية العقل وكلية مبادئه، «فالعقل كوني ومبادئه كلية ضرورية... نعم. ولكن فقط داخل ثقافة معينة أو أنماط ثقافية متشابهة»⁽⁵⁾

(1) : المصدر نفسه، ص 557.

(2) : المصدر نفسه، ص 557.

(3) : محمود اسماعيل: قراءة نقدية في الفكر العربي المعاصر، ودراسات في الهرمينوطيقا التاريخية، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1988، ص 19.

(4) : محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة 10، ص 26.

(2) : المصدر نفسه، ص 16



وقد استند الجابري، من خلال مشروعه "نقد العقل العربي"، في تحديده لمفهوم العقل، على نظرية "العقل المكوّن"، والعقل المكوّن"، وهي نظرية حديثة للفيلسوف الفرنسي رينيه لالاند، حيث فيقول الجابري موضحاً لهذه النظرية: «لنستعن بادبي ذي بدء، في تلمّس الجواب عن هذه الأسئلة بالتمييز الذي أقامه لالاند بين العقل المكوّن أو الفاعل، والعقل المكوّن أو السائد. فالأول يقصد به النشاط الذهني الذي يقوم به الفكر حين البحث والدراسة والذي يصوغ المفاهيم ويقرر المبادئ، وبعبارة أخرى إنه: الملكة التي يستطيع بها كل إنسان أن يستخرج من إدراك العلاقات بين الأشياء مبادئ كلية وضرورية. وهي واحدة عند جميع الناس. أما الثاني فهو مجموع المبادئ والقواعد التي نعتمدها في استدلالنا. ... وبعبارة أخرى إنه: "منظومة القواعد المقررة والمقبولة في فترة تاريخية ما، والتي تُعطى لها خلال تلك الفترة قيمة مطلقة.»⁽¹⁾

يدل هذا التقسيم الثنائي للعقل القائم على أساس (تاريخية العقل). هو أن العقل الذي يسميه لالاند بـ (المكوّن) لا يمكن له أن يكون ثابتاً مطلقاً، إنما يكون ثابتاً في فترة تاريخية معينة، فحينما يبدأ العقل (المكوّن) بإعادة النظر في ذاته ونقد العقل (المكوّن)؛ عندها سيقع العقل (المكوّن) وهو العقل الناقد الفاعل في إشكالية مع العقل (المكوّن)، وهنا نقطة التغير وبداية لإعادة النظر في المفاهيم وصياغتها من جديد، ما يجعل العقل الناقد يثور على كل المفاهيم السائدة التي تشكلت بفعل العقل (المكوّن)، وبالتالي لا يمكن للعقل أن يكون ثابتاً بل على العكس من ذلك فهو في تغير وتجدد وتطور وإعادة تكوين وبناء. إذن تاريخية العقل هي التي أرادها الجابري، لأنها تجعل العقل ناقداً فعالاً يثور على كل ما هو سائد في فترة تاريخية ما. ويتم ذلك حسب الجابري بالبحث في البنية الداخلية لهذا العقل، بمعنى دراسته دراسة نقدية ابستمولوجية تواكب تطورات العصر.

- رابعاً: المسألة الابستمولوجية للتراث

إمكانية صناعة الأنا العربي من خلال فلسفة عربية تعكس المقومات التاريخية، والحضارية لها، لن تتأتى حسب الجابري إلا من خلال تجاوز البحث في مقولات التراث، ومسائله، بمعنى الانتقال من نقد مضامين التراث الدينية إلى نقد بنيتها، والأنظمة التي انبنت وتأسست عليها؛ أي الاهتمام بدراسة المناهج، والآليات التي يعمل بها العقل العربي، بدل الانشغال بالمسائل الدينية في التراث التي وإن اختلفت في فروعها، فأصولها واحدة.

وأكد الجابري على ضرورة العودة إلى وصل ما انقطع من المشروع النهضوي العربي منذ عصر التدوين باعتبار أن التراث ما هو إلا امتداد للتاريخ، والوطن، وعليه عمل الجابري على تشخيص الآليات المعرفية التي حالت دون تحقيق نهضة عربية تعكس الهوية، والأنا العربي، وهذا بالتمييز بما هو عقلائي فيها، بنقد كل الأصنام الفعلية التي تطورت تاريخياً، وجعلت العقل العربي لا يستوعب معطيات واقعه عقلائياً فالجابري أراد البحث في معيقات العقل العربي، واستدراك النقص الذي عاناه ولا يزال يعانيه مشروع النهضة العربية وهذا بعمل نقدي معرفي

(1) : المصدر نفسه، ص 15.



إبستمولوجي بحث للبنية الذهنية الغائرة في التراث العربي الإسلامي، بحيث أن هذا الأخير؛ أي التراث وضعه الجابري تحت مسألة إبستمولوجية نقدية تؤسس لإمكانات قيام النهضة العربية المعاصرة، وتعيد للتأسيس لفكر عربي قومي بآليات عقلانية مقرونة بالفكر الإسلامي. بمعنى أي نهضة عربية معاصرة يمكن لها أن تكون؟ هذا طبعاً وفقاً لحداثة عربية بثوب وآليات عربية تعكس آداب العرب و ثقافتهم.

فكيفية التعامل مع التراث والموروث الثقافي هي التي شغلت الجابري وجعلته يبحث عن الآلية التي تأتي بالتجديد وبالتالي تجاوزا كل القراءات الكلاسيكية التقليدية التي ركزت على الجانب الإيديولوجي، و أهملت البناء الداخلي للخطاب العربي لهذا يرى أن توظيف الجانب الإيديولوجي في الخطاب العربي ما هو إلا تغطية على العجز المعرفي لكن هذا لا يعني إغفاله والتغاضي عنه لأن طبيعة النصوص العربية مثقلة بالإيديولوجيات المختلفة التي تفرض نفسها على من يريد الخوض والغوص في الذهنية العربية من خلال المذاهب و يبرز ذلك جليا في علم الكلام ونجده قائلاً في هذا الصدد: « أما توظيف الإيديولوجي للتغطية على النقص في المعرفي فهو جانب لم نبرزه في الخطاب العربي القديم لأن اهتمامنا كان مركزاً على الجانب الإبستمولوجي وحده من جهة، و لأنه بارز بنفسه من خلال التمدد و هو يأخذ في علم الكلام خاصة مظهراً مضاعفاً»⁽¹⁾ لكن هذا لا يعني أن الجابري لا يعترف بأهمية الجانب الإيديولوجي في دراسة التراث لكنه يعتبره شيء يفرض نفسه على الباحث ولا يأتي بجديد لذا كانت العودة للإبستمولوجية، بالنظر العقلي النقدي هي التي يجب التركيز عليها حسب الجابري حينما نضع أنفسنا في مسألة مع التراث كوحدة بنائية معرفية، و ليس كما نظر إليه البعض بنظرة تجزئية تلغي كل التماسك المعرفي و الوظيفي بين مختلف البنى المعرفية مما أدى إلى تفكك المعارف وزعزعة وحدتها وهذا حتماً سينعكس سلباً على وحدة البنية المعرفية العربية وبالتالي نكوص النهضة العربية.

فالقراءة الإبستمولوجية للعقل العربي، و مناقشة البنية الفكرية العربية في عمقها من خلال التجديد الداخلي للثقافة العربية الإسلامية، و التسلح بالرؤية النقدية النابعة من روح العصر وتاريخية العقل من شأنها أن تنتج ثقافة عربية جديدة معاصرة. لكن ليس بالانسلاخ الحضاري، و محاكاة الغرب، ولا بالرضوخ للتراث، و البقاء حبيسي مقولاته، ولا الميل إلى أحدهما على حساب الآخر. «وهناك محاولات كثيرة تنهض جميعاً على خطورة مشروع الجابري، و تأثيره الإيجابي بغض النظر عن جوانب قصوره من حيث إثارة حوار خصب شغل ولا يزال يشغل الإنتلجيسيا العربية المعاصرة، و حرك فيها فضيلة الحوار النقدي، و ما استلزمه من عودة إلى التراث من ناحية ومواكبة للحدثة التي فتح الجابري بابها من خلال تعويله في مشروعه على الثورة المنهجية والإبستمية الغربية المعاصرة من ناحية أخرى»⁽²⁾

(1): محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص 566.

(2): محمود اسماعيل: قراءة نقدية في الفكر العربي المعاصر، ص 9.



ما يمكن قوله أن الجابري حمل على عاتقه هاته المهمة ألا وهي البحث في السبل و الممكنات التي يمكن لها أن تصنع فكرا عربيا بصفة خاصة وإسلاميا بصفة عامة، ويدرك جيدا حجم المهمة وصعوبتها نظرا لما يحمله مضمون الخطاب العربي من جملة متناقضات ترجع في جوهرها إلى الأساس الذي انبنى عليه، لأن الإشكالية الأساسية تكمن في مرجعية الخطاب وليس في الخطاب ولهذا كان ولا بد من إيجاد آلية تعيد النظر في بنية هذا الخطاب وتتجاوز بذلك كل المحاولات التي فشلت في تقويضه وإعادة بنائه بناءا يعكس واقع الذات العربية ويصنع نهضتها . وهذا بالعودة إلى التراث ووضعها تحت النظر الإستمولوجي لا الديني، متجاوزا بذلك كل القراءات الرجعية للثقافة العربية الإسلامية. فالجابري كان نموذجا مغاريا تنويريا بامتياز عكس مسعى العقل المغاربي في إعطاء الدفع للمفكر العربي كي يكون مفكرا عضويا فعالا، فالجابري غرامشي مغاربي فتح الطريق أمام كل العقول المستقلة التي تعيش اغترابا واقعيا وحضاريا عليها تستنير وتعيد للعقل العربي فعاليته وتضعه على رأس هرم الحضارة لا أسفلها.